صورة الآخر المخالف عن "النحن"
المفاهيم الحداثية كآلية للإخضاع وإرساء صورة "الأنا" المتفوقة
–الاستعمار الفرنسي للمغرب نموذجا–

الباحثة إلهام وهابي
تحت إشراف: فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى نعيمي
طالبة باحثة في سلك الدكتوراه
جامعة ابن طفيل – كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطرة–المغرب

ملخص البحث:

تروم هذه الدراسة تسليط الضوء على "إشكالية الآخر" في إطار الموجة الاستعمارية التي شنتها الدول الأوربية على دول المغارب، ونخص بالذكر في هذه الدراسة "بلاد المغرب"، إذن فعقلنة المجتمع الأوربي وبالتالي الفرنسي وتقليدية البنيات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمغرب ساهمت في خلق صورة "الأنا المتفوقة" لدى فرنسا عن المغرب "التقليدي"، حيث يتمحور البحث حول "إشكالية الأنا المتفوقة" التي استغلت آلية المعرفة وتطور العلوم وامتلاك وسائل الإنتاج والقوة العسكرية وعقلنة المجتمع الأوربي لفرض السيطرة على المغرب بذريعة نقل مفاهيم الحداثة إلى هذا القطر، فكان أن وظفت، قبل إخضاع هذا البلد، عدد من الميكانيزمات أولها توظيف المعرفة من خلال إرسال بعثات من العلماء من شتى المجالات لدراسة المغرب من أطباء وعلماء نفسيين وأنثروبولوجيين وسوسيولوجيين ... إلى غير ذلك، ثم انتقلت إلى إحباط كل محاولات التطور الاقتصادي للمغرب، من خلال فرض معاهدات اقتصادية مجحفة لا تخدم ميزانية هذا البلد، فكان أن أثقلته بالضرائب والديون لكي تتمكن من التدخل عسكريا بدعوى حماية مصالحها الاقتصادية، كما استغلت فرنسا توتر العلاقة بين القبائل والمخزن لتؤكد أن القبائل لم تكن تقبل الخضوع للسلطة المركزية بدعوى أنها غير عادلة وتثقل كاهل القبائل بالضرائب كما فسرت فرنسا الوضع أيضا أن القبائل كانت تود البقاء مستقلة عن السلطة المركزية، ومن تم فإن القبائل لم تكن رافضة لفرنسا وللتدخل الأجنبي بقدر رفضها الخضوع للسلطة المركزية. كل هذا لتثبث فرنسا وتؤكد على تقليدية المؤسسات المغربية وفي ذات الآن رامت الإبقاء عليها كشاهدة على الفرق بين الحداثة والتقليد، بين العوالم المعقلنة والعوالم التقليدية، بين "الأنا المتفوقة" و"الآخر المتخلف" ...

الكلمات المفتاحية: فرنسا/ "الأنا المتفوقة، المغرب/ الآخر غير المتحضر، إشكالية الغير، إشكالية "الآخر" المختلف عن "النحن"، الاستعمار كآلية للإخضاع، مفهوم الحضارة في التعبير الأوربي، نقل الحضارة إلى العوالم الأخرى المختلفة عن "الأنا المتفوقة".

مقدمة:

أصبحت الدولة في وقتنا الراهن رمزا للعقلانية المنتصرة وعنوانا بارزا للمجتمعات المتحضرة، فالمجتمع الحديث لم يعد قادرا على ممارسة أي نشاط ومن أي نوع كان إلا ضمن الدولة وعبرها، حيث صارت الدولة هي المعبرة عن المجتمع بعدما اختزلته ومحت كل فارق بينها وبينه، إن المجتمع الآن أصبح هو الدولة، فنجاح الفكر الغربي في فرض نموذج "الدولة ـ الأمة" L'état-nation كنموذج عالمي، متعال عن التاريخ، ومنفصل عن الثقافة جعل التفكير في شكل مغاير للدولة يبدو أمرا مستبعدا ما دام التفكير فيها يتم ضمن نفس الأطر المعرفية التي حكمت وما زالت تحكم ولادة وتطور "الدولة ـ الأمة"، وما دامت حبيسة الأشكال التي أفرزتها مسيرة الغرب، ولا يمكن تجاوز هذا الوضع ما دامت المفاهيم السياسية المرافقة لتجربة الدولة الحديثة عاجزة عن إبداع ونحت مصطلحات ومفاهيم تجد لها سندا في تراث الأمة، وما دام الإصرار قائما على نقل كل ظلال المعركة التي صاحبت عملية نشأة "الدولة ـ الأمة" إلى أرضية حضارية يحركها مخيال مختلف وتشكل وعيها الجمعي ضمن مسار وسياق حضاري مغاير.

ونجد قراءة الفكر الغربي لظاهرة الدولة قراءة مشحونة بأنوية حضارية ومشبعة بنرجسية ثقافية طاغية، فهو يقرأ الدولة الحديثة لا على أنها نموذج من جملة نماذج متعددة، بل على أنها النموذج الوحيد معتبرا كل أشكال السلطة التي عرفتها المجتمعات غير الرأسمالية ترتكز على الخرافات والتقاليد، أي على أسس لاعقلانية، ولذلك فهي لا تملك سوى الذوبان داخل المجتمع الكبير بتحديث نفسها أو الانقراض، هكذا تصبح الآفاق مغلقة أمام المجتمعات غير الرأسمالية، فقد أصبحت المشكلة تكمن في تنظيم المجتمعات المدنية للمجتمعات غير الرأسمالية من أجل جعلها منسجمة مع البنى السياسية الجديدة التي صارت تمتلكها.

إن الفكر الغربي من خلال قراءته هذه، يجعل من الدولة الحديثة ليس فقط تجربة سياسية ناجحة للمجتمعات الغربية بل يعمل على اعتبارها ظاهرة عالمية قابلة للتعميم، إنه بهذه القراءة يفصل الدولة عن سياقها التاريخي ووعائها الحضاري ليجعل منها أداة التحديث المفضلة والوسيلة المثلى للعقلنة، ويرى الباحثون في نشأة الدولة الحديثة أساس التفوق الأوربي على باقي العوالم لأنها كانت تساير التحولات والمنعطفات الجديدة في أوربا وقد أظهر فرناند بروديل الترابط الموجود بين التحولات الاقتصادية والاجتماعية من جهة والمؤسسات السياسية ويورد بأن: {مأساة البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر تتلخص في نمو الكيانات السياسية العملاقة.. لكن بعد مرور هذا القرن..، تخلت الظروف السياسية عن هذه الأجسام الضخمة لصالح الدولة الوطنية الحديثة}.

لعل أهم ما تميزت به أوربا منذ قرون هو وعيها بإمكاناتها الجديدة وقدراتها الكامنة في الإنسان، حيث فجرت الفردانية كل طاقات هذا الإنسان الذي أخرج أوربا من الانعزال والانغلاق وجعلها تكتسح العالم وتستغله، وقبل أن تكتسحه كونت صورة عنه بالتدريج فظهر لها الإسلام والمسلمين في مرحلة ركود وتأخر فسرته بعدة عوامل تخدم أهدافها الاستعمارية، وتخول لها التوسع على حساب العالم الإسلامي وتضفي على توسعها هذا طابع المشروعية كعقلنة المجتمع الإسلامي وإرساء المؤسسات التمثيلية، وكان آخر بلد عربي إسلامي إفريقي سقط في يد الاستعمار الأوربي هو المغرب، يكتب جون برينيون Jean Brignon : "قد ضمن المغرب فيما قبل روابطه بين إفريقيا السوداء ودول الحوض الغربي للبحر المتوسط واستطاع أن يصل إلى قمة القوة الاقتصادية والسياسية والثقافية، لكن بعد الكشوفات الجغرافية وبعدما تحولت الطرق التجارية لصالح أوربا تغيرت معايير القوة فانطوى المغرب على نفسه سعيدا بما حققه في ماضيه وأخذ يصارع لحفظ استقلاله، إنها معركة نبيلة لحفظ كيانه، ولكنه بات في وضعية أقل ارتياحا، فعندما تقدمت أوربا بخطوة لتصبح دولة عملاقة تتفوق على باقي العوالم ظل المغرب مخلصا لكل المقومات التي صنعت قوته في

ماضيه، لكن طريقة دفاعه هاته لم توصله إلا إلى إبرام عقد الحماية فاستحوذ الأجنبي على ثرواته و أصبح يعمل على حفظ مصالحه بهذا البلد".

مشكلة الدراسة: شكل الاستعمار مرحلة حاسمة وفاصلة في تاريخ المغرب، كشف عن مجموعة من الثغرات وسلط الضوء على مجموعة من الإشكاليات، منها إشكالية الذات العارفة بالآخر والمتفوقة (عقدة أوربا المتفوقة) التي وظفت الآلية الاستعمارية لإخضاع الشعوب الأخرى، في إطار ما يسمى بنقل المعرفة الحديثة ونقل ما تم التوصل إليه من تطور العوالم الأوربية، أو بمعنى آخر نقل الحضارة – من منظور الأوربيين – إلى العوالم التي لم تمر بالمراحل التاريخية التي مرت منها أوربا.

سعت فرنسا إلى الحصول على المغرب وإدراجه ضمن أولوياتها، فكان أن قامت أولا بدراسة هذا القطر، في إطار ما عرف بالبعثات الأوربية للمغرب، والتي كانت تضم علماء من جميع المشارب، من علماء أنثروبولوجيين وسوسيولوجيين وأطباء وعلماء النفس وعلماء الدين... لدراسة الشعب المغربي لتحديد جوانب الضعف ودراسة مناحي القوة، فكان أن شكلت صورة عنه، "صورة الذات العارفة والمتعالية عن العوالم التقليدية"، ثم جاءت المرحلة الثانية ألا وهي محاولات إضعاف المغرب على جميع المستويات بدءا باختراق الدواليب الحكومية التقليدية مرورا بتفكيك المجتمع القبلي ثم إنهاك البنية الاقتصادية عن طريق توقيع المعاهدات التجارية وعقد الصفقات، شراء الأراضي عن طريق الضغط على الأفراد بأشكال شتى وإثقال المغرب بالديون حتى تتدرع فرنسا للدخول إلى المغرب عسكريا ولتؤكد للمغرب هشاشة جميع بنياته وتقليديتها.

فرضية الدراسة: تمكنت فرنسا من إخضاع المغرب لأنه لم يمر من المراحل التاريخية التي مرت منها فرنسا وأوربا بصفة عامة ومن تم فعقلنة باقي العوالم كان هو شعارها لفرض هيمنتها وبالتالي الاستحواذ على المغرب وقبل ذلك كونت صورة عنه من خلال بعثاتها ودراساتها حوله وإدراجه ضمن العالم الشرقي الذي لم يحسم أمره مع "التقليد" فظل بعيدا عن الحداثة ومفاهيم العالم الأوربي، إذن فعقلنة المجتمع الأوربي وبالتالي الفرنسي وتقليدية البنيات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمغرب ساهمت في خلق صورة "الأنا المتفوقة" لدى فرنسا عن المغرب "التقليدي" الذي بات بدوره منبهرا بالعوالم الحديثة "أوربا" يتبين ذلك من خلال ما سجلته رحلات المغاربة لأوربا.

أهمية الدراسة: يهدف البحث الذي بين أيدينا إلى إثراء المعرفة العلمية في مجال التاريخ ثم تطوير الفكر الموضوعي في هذا المجال والوصول إلى أساليب جديدة لمعالجة المشكلات مما يساهم في زيادة المعرفة البشرية بصفة عامة وتوضيح الآراء العلمية التي تم التوصل إليها والتحقق من صلاحيتها في أفق فتح أبواب جديدة للنقاش في مثل هذه القضايا.

نسجل أيضا أن أهمية البحث تتمثل أيضا في دراسة الهوة التاريخية بين "الأنا المتفوقة" والآخر "المتخلف والتقليد" ومن تم نرمي إلى تسليط الضوء على هذه الإشكالية من خلال نموذج المغرب وفرنسا، هذه الأخيرة التي وظفت آلية المعرفة والتطور العلمي وعقلنة مجتمعها ورواسبها التاريخية لتخضع المغرب في إطار ما يسمى بنقل "نموذج الدولة الحديثة إلى هذا القطر".

منهجية التحليل: بخصوص منهجية التحليل المتبعة نشير إلى المنهج الاستقرائي وذلك من خلال اعتبار فرنسا والمغرب عينتي الدراسة واعتبارهما كجزء للانطلاق إلى الكل والمتمثل في العالم الأوربي المتفوق والعالم الشرقي التقليدي الذي لم يمر من الطفرات التي مرت منها أوربا.

اعتمدنا أيضا المنهج الوصفي التحليلي الذي يرتكز على رصد الموضوع محل الدراسة ألا وهو إخضاع الآخر "غير المتفوق" و"غير المتطور" و"غير المتحضر"، ومِنْ ثَمَّ توصيف القضية التاريخية التي بين أيدينا؛ من خلال المعلومات والبيانات المتاحة بشكل مبدئي من المصادر والمراجع، ثم وضع فرضيات البحث، ثم التعمق في الدراسة، والتَّعرُّف على مسببات المشكلة، وتحليل النتائج، ووضع الحلول أو التوصيات الممكنة.

حدود الدراسة: إن عقلنة المجتمع الأوربي والحسم في المسألة السياسية جعلت أوربا تعتبر النموذج الأوربي هو النموذج الأمثل والأصلح لجميع العوالم، ومن تم محاولاتها فرض نموذج الدولة الحديثة على باقي الأقطار، من خلال الموجة الاستعمارية، إذن تتحدد الدراسة زمنيا بالفترة الحديثة والمعاصرة، وعلى مستوى الموضوع تتحدد في إشكالية "الأنا الأوربية المتفوقة" في علاقتها بباقي العوالم، ويختص بحثنا هذا في فرنسا والمغرب كعينتين للدراسة.

هيكلة الدراسة: تم تقسيم هذه الدراسة إلى مبحثين، يتناول المبحث الأول صورة الآخر المخالف عن "الأنا المتفوقة" حيث سنحلل صورة المغرب في أدب الرحلة، بينما يتطرق المبحث الثاني إلى مسألة تعطيل المؤسسات المغربية من قبل فرنسا وإرسائها شاهدة على الفرق ما بين "الحداثة" و"التقليد":

المبحث الأول: صورة الآخر المخالف عن "الأنا المتفوقة": المغرب في أدب الرحلة:

بحكم أن المغرب هو أكثر البلدان العربية والإسلامية قربا من أوربا، فإنه من المنطقي أن تتوفر له ما لم يكن لغيره من بلدان العالم العربي الإسلامي، من حيث العلاقات السياسية والاقتصادية مع أوربا الممتدة عبر قرون، وطابع الندية الذي وسم هذه العلاقات على المستوى السياسي والديبلوماسي خلال فترات قوة الدولة المغربية، وبهذا فإن كل هذه المعطيات التاريخية والجغرافية انعكست بشكل مباشر على أدب الرحلة في المغرب.

يمكننا اعتبار مغرب القرن 19 نتاج لمجموعة من التطورات سواء الداخلية منها أو الخارجية، فلقد شكل الاصطدام بالأجنبي محطة تاريخية استوقفت الرحالة كثيرا خاصة على مستوى نظرة الأنا المغربية للآخر الأجنبي، و التي كرست ضعف الأنا، وانهزاميته في مقابل تفوق الآخر على جميع المستويات، واستيعابه لمعطيات المرحلة، ومواكبته للتطور العالمي اقتصاديا وعسكريا، فكريا، وسياسيا

يبرز لنا كتاب سعيد بن سعيد العلوي من خلال دراسة وتحليل أهم الرحلات التي كتبت بين أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين كيف تطورت العلاقة بين الذات والآخر، إننا ونحن نقرأ هذه الرحلات نكتشف الصورة التي شكلها المغاربة عن أوربا وكيف كانت تتغير بتغير ميزان القوى النفسي لدى المغاربة، إن الرحلات العشر – التي تشكل متن الكتاب – صنفها الكاتب حسب تطور الوعي بالذات والآخر فالسلسلة الأولى منها وقعت في عهد السلطان محمد بن عبد الله، وكانت تعكس لحظة القوة والثقة بالنفس، أما الثانية وهي التي واكبت معركة إيسلي (1844) وحرب تطوان (1860) فتعبر عن لحظة الاكتشاف والهزيمة، وتأتي السلسلة الأخيرة إبان دخول الاستعمار إلى المغرب ثم مواجهته بكل أنواع المقاومة، فتعبر عن لحظة الدهشة واستعادة الوعي. إن الكاتب قد نجح في أن يجعل من هذه الرحلات مؤشرا دالا على مدى تطور الوعي من خلال تفاعل الذات مع الآخر.

سعى محمد بن عبد السلام السايح من خلال ما خص به باريس إلى إطلاع المغاربة بالطفرة التي حققتها فرنسا وأوربا عموما في الفترة المعاصرة على المستوى الحضاري والعلمي والتكنولوجي فهو نفسه من حيث كونه ينتمي إلى النخبة المثقفة المخزنية لم يخف اندهاشه وافتتانه بباريس، وهو من خلال ذلك لم تكن فرنسا بالنسبة له الاستعمار والاحتلال أو الحماية بل فرنسا العقل والحداثة

والعلم والتكنولوجيا. إن السايح قد ساهم في نقل بعض الأفكار والتقنيات والمعرفة بشكل عام من فرنسا / أوربا إلى المغرب. وفي الوقت ذاته عمل على نقل أفكار ومعارف إسلامية إلى أوربا من خلال طريقته الفلكية والرياضية logarithme في تحديد سمت القبلة كما هو متعارف عليه في الثقافة الإسلامية، وهو ما لم يتعارض مع التكنولوجيا الفرنسية المعاصرة (البوصلة). والسايح من خلال كل ذلك يبدو منفتحا على هذا العالم الجديد الغرائبي ومتأثرا به بل ومتفاعلا بعقلانية واجتهاد.

إننا بصدد نص رحلي بالغ الأهمية سواء من حيث سياقه التاريخي الذي يؤطره أو من حيث الشخصية التي أنتجته أو المضامين المتنوعة التي احتوته. فالرحلة "أسبوع في باريز" تنتمي إلى مرحلة جد حرجة من تاريخ المغرب المعاصر وبالتحديد فترة حكم السلطان مولاي يوسف (1912- 1927) حيث جرت أحداث الرحلة عام 1922، ولذلك فلا يمكن استيعاب أحداث رحلة "أسبوع في باريز" وأهدافها إلا في سياق المرحلة وفي إطار السياسة الإسلامية لفرنسا: تشييد المعهد الإسلامي بباريس كتذكار لمشاركة المسلمين في الحرب العالمية الأولى في صفوف فرنسا، وتحديد سمت القبلة من طرف فقهاء مسلمين (المغرب والجزائر وتونس) ومنهم محمد بن عبد السلام السايح.

فالسايح في هذا السياق هو نموذج للنخبة المثقفة المخزنية لم يجد أي حرج في التعامل مع فرنسا / الحماية، فنظرته إليها من خلال رحلته "أسبوع في باريز" ومن خلال الصورة الحضارية التي عكسها عنها لا تعكس – وهذا كان هدفه وهدف العديد من النخبة المثقفة المغربية – فرنسا/الاستعمار والاحتلال والقمع وإنما فرنسا القيم الحضارية والعلوم والتكنولوجيا، فرنسا التسامح والتعايش (مسجد باريس)، ولذلك كان تأكيده على ضرورة أخذ العبرة بفرنسا وما استطاعت أن تحققه بفضل العلوم والمعرفة العصرية. إن السايح في هذا الإطار يعكس توجها هو توجه نخبة مخزنية كانت تنظر بنظرة عقلانية إلى المرحلة وملابساتها، ولعل هذا ما ساهم في التأسيس للعمل الوطني السلمي فيما بعد.

إن السايح وهو في فرنسا كان يحمل معه ثقافته وقيمه والمعرفة السابقة بمعنى مواقفه وأحكامه، وبالتالي الصورة التي ينتجها فماذا عن صورة الأوربي التي كونها عن العوالم التي لم تمر من التجارب التي مرت منها أوربا ونخص بالذكر هنا المغرب موضوع المقال؟

جاء الرحالة والمغامر الكطلاني دومينيك باديا إي ليبليتش (1767- 1818) إلى المغرب تحت اسم مستعار وهو علي باي العباسي وقد جمع مشاهداته من ثلاثة أجزاء تحت عنوان voyage d'Ali Bey El Abbassi en Afrique et en Asie الذي يضم قسما خاصا بالمغرب ويعتبر من أدق ما كتب حول هذا البلد إلى ذلك الحين.

خلال السنتين والنصف اللتين قضاهما في تجواله بالمغرب تمكن باديا من أن يلج إلى مختلف الأوساط الاجتماعية، واستقبل عدة مرات من قبل السلطان بطنجة وفاس ومراكش وسجل أوصافا مدققة عن مخزن بداية القرن التاسع عشر وعن مجتمعات البوادي والحواضر، وبعد استقراره بباريس سنة 1812 وضع معارفه في خدمة فرنسا، فالجو المغمور الذي عرفته هذه الأخيرة حول أهمية الدستور دفعه إلى تحرير دستور على مقاس المغرب، ويندرج هذا الإجراء في إطار تصور أوسع يرمي إلى قلب نظام حكم السلطان المغربي وتعويضه بنظام دستوري يوضع على رأسه شخص أوربي له معرفة واسعة بالبلد ودينه وتقاليده وثقافته ولم يكن ذلك الشخص سوى باديا ذاته (في تصوره)، وقد ضم مشروعه ستة عشر صفحة مخطوطة، تحتوي على واحد وثلاثين فصلا مع تصدير وتذييل، وقد عنون مشروعه "بدستور شعوب الغرب"، ويقر في التصدير" أن الهدف هو القضاء على حكم الشرفاء المستبدين وإعلان حكم

سلطان يحظى باحترام الأهالي، ويعلن أن هذا السلطان سيكون هو علي باي العباسي أي باديا نفسه، لأنه لا يزال يقدم نفسه كعربي مسلم".

من تم لم ينجم عن التوسع الاستعماري بالمغرب نسف المؤسسات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية وتغيير الدواليب المخزنية ودخول قيم حداثية فحسب بل ارتبطت به أيضا المسألة الدستورية سواء أكان ذلك يدخل في سياق حركة رد فعل ذات طبيعة وطنية ضد استفحال المد الأجنبي بالبلاد في أوائل القرن العشرين أم يندرج في إطار مخطط لاحتلاله وذلك ما بلوره مشروع "دومينيك باديا إي ليبليتش" في أوائل القرن التاسع عشر،

تفيد القراءة الكولونيالية "أن القبائل لم تكن حاقدة على الفرنسيين بل كانت تقاوم السلطان، مستحضرة الصراع الأزلي بين بلاد المخزن وبلاد السيبة" يكتب دوفوكو: {هناك منطقة نتمكن من عبورها دون أن نلبس ما يخفي هويتنا، لكنها منطقة ضيقة ومحدودة جغرافيا، فالمغرب ينقسم إلى قسمين، القسم الأول خاضع للسلطان بشكل فعلي وهو المسمى ببلاد المخزن حيث يمكن للأوربيين أن يتجولوا بحرية وفي أمان، أم القسم الثاني فتسكنه قبائل غير خاضعة أو بالأحرى قبائل مستقلة ويعرف مجالها الجغرافي ببلاد السيبة، حيث لا يجد الأوربي سبيلا لدخولها، وتعد أكبر بكثير من مساحة بلاد المخزن، إذن فمعظم مناطق المغرب مغلقة بالكامل في وجه المسيحيين الذين لا يلجونها إلا بالحيلة مخاطرين بأنفسهم، وهذه الحساسية المفرطة والمتطرفة ليست ناتجة عن العصبية الدينية بل تجد مصدرها في شعور جماعي لدى كل الأهالي، حيث يعتبرون بأن أوربيا ينتقل بين أرجاء بلادهم لا يمكن أن يكون إلا مبعوثا ليتعرف عليهم وليدرس أراضيهم من زاوية استعمارية، فهو جاسوس يجب أن نحتاط منه بل تجب تصفيته... وبدون شك يظل التعصب العرقي في إطار حسابات هؤلاء الأهالي لكن يأتي في الدرجة الثانية، لأنهم يخشون المستعمر أكثر من كرههم للمسيحي}.

وقد استهدف دوفوكو من رحلته إلى المغرب جمع ما قد يفيد الإدارة الفرنسية والجيوش التابعة لها بشمال إفريقيا عامة والمغرب على الخصوص، ونجده في كتابه المتضمن لرحلته Reconnaissance au Maroc قد قارن هو الآخر بين بلاد المخزن وبلاد السيبة ومن بين العناصر التي ارتكز عليها في المقارنة التي وضعها عنصر الزطاط باعتباره ينعدم داخل بلاد المخزن ويعتبر كسلطة أمنية بديلة لسلطة المخزن.

المبحث الثاني: تعطيل المؤسسات المغربية وإرسائها شاهدة على الفرق ما بين "الحداثة" و"التقليد":

إن القوى الاستعمارية التي أفرزتها الحضارة الصناعية كما أفرزها التكالب على المواد الأولية وتكوين الإمبراطوريات كلها كان لها طموح في أن تستولي على هذا القطر وتتصارع من أجله لأنه يشكل بمركزه الجغرافي والاستراتيجي صلة وصل بين أوربا وإفريقيا، ولأنه يتحكم في الضفة الجنوبية لمضيق جبل طارق، ولأنه بهذه الصفة لعب دورا أساسيا في نقل الإسلام والعروبة وحضارتيهما إلى جزء من أوربا (الأندلس)، ولأنه كان ممرا ومركزا لجحافل المسلمين، ولأنه مؤهل لأن يلعب دورا مهما في أية حرب عالمية، وقد لعب بالفعل دورا لا يستهان به في الحربين العالميتين، هذا المركز الاستراتيجي والتاريخي للمغرب هو الذي دفع القوى الاستعمارية إلى محاولة السيطرة عليه "فانتهى الأمر بتصفية الحسابات بين أغلب هذه القوى وبقي في الميدان كل من فرنسا وإسبانيا اللتين مزقتا وحدة المغرب بين الشمال والوسط والجنوب الصحراوي والشرق الصحراوي، وطنجة، حيث استحوذت فرنسا على وسط المغرب والشرق الصحراوي الذي ألحقته بالجزائر التي كانت تعتبرها مقاطعة فرنسية، ويعني ذلك إلحاق هذا الجزء من المغرب بفرنسا نفسها،

في حين استولت إسبانيا على شمال المغرب والجنوب الصحراوي الذي قسمته إلى عدة مقاطعات لكل منها وضعية خاصة من وضعيات التبعية والاستعمار، وأصبحت مدينة طنجة منطقة دولية".

أظهرت أوربا منذ هزيمتي إسلي وتطوان ليس فقط هزيمة الجيش المغربي فقط بل هزيمة النظام المؤسساتي المغربي بأكمله، لكن مغرب القرن التاسع عشر لم يغير مؤسساته بخلق مؤسسات حديثة، بل كيفها مع الواقع الجديد المتمثل في الاستعمار الأوربي الذي لم يهدف من تفكيكه للمؤسسات المغربية تدميرها بل فقط شلها لكي تبقى شاهدة على الفرق ما بين "الحداثة" و"التقليد" ثم تهيئتها للسيطرة الأجنبية.

ظلت فرنسا خلال الفترة التي تفصل بين دخولها الجزائر وعقد معاهدة الحماية على المغرب في 1912 تضرب الحساب لقدرة هذا الأخير على المقاومة ولقدرة مؤسساته على التجديد واسترجاع حيويتها في حالة هجوم أجنبي على التراب المغربي، كما انكبت في نفس الوقت على دراسة هذه المؤسسات والعمل على تعطيلها،" ولم تكن أغراض فرنسا أغراضا تجارية محضة كباقي الدول الأوربية التي تنافست على الأسواق والمواد الأولية وفتح الاقتصاد المغربي على الاقتصاد الرأسمالي بل كان هذا داخلا في مسلسل إضعاف مناعة البلاد وتهيئتها للسيطرة الأجنبية".

لهذا نجد أن ضغوطها الاقتصادية والمالية منذ استقرارها في الجزائر إلى سنة 1912 كانت ضغوطا ترمي إلى إضعاف البلاد وتفكيكها اجتماعيا، سياسيا واقتصاديا " لأن فرنسا لم يكن من مصلحتها من وجهة نظر سياسية أن يسير المغرب نحو التقدم الاقتصادي بل كان يجب عليها أن تترك هذا البلد يتفكك وأن تعوق كل انتعاش من شأنه أن يقرب السكان من عاهلهم" فقد استطاع Beclard الوزير المفوض الفرنسي في طنجة أن يفرض المعاهدة التي حملت اسمه والتي فتحت الأسواق المغربية نهائيا وقانونيا للرأسمال الأوربي مخلة بالتوازن الغذائي والقدرة الشرائية للفلاح والحرفي، كما أنها وسعت نطاق الحماية بما كان يعنيه هذا من تقليص سلطة المخزن ومن ارتفاع عدد المتملصين من الضرائب وأغلبيتهم من ذوي الدخل الكبير وإثقال كاهل الباقين وأغلبيتهم من الفلاحين الصغار والحرفيين، وما يتبع هذا من مظالم وغرامات وثورات وحركات، "وبذلك سدت معاهدة Beclard المبرمة سنة 1863 كل الثغرات التي بقيت في المعاهدتين الانجليزية المغربية (1856) والاسبانية المغربية (1861) حيث كان المغرب يعتمد عليهما قانونا للاحتجاج لدى الدول الأجنبية كالبند الرابع من معاهدة 1856 الذي كان ينص على أن المستخدمين لدى التجار الأنجليز يعاملون كباقي المغاربة والذي تم تأكيده في معاهدة 1861 مع إسبانيا".

ونشير إلى أن معاهدة 1856 قد شكلت بدورها الحجر الأساس في بدء عملية إدماج المغرب في السوق العالمية، فرغبة منها في الحفاظ على سيادة أسطولها في البحر الأبيض المتوسط وعلى القيمة الإستراتيجية لجبل طارق لجأت بريطانيا العظمى إلى مساندة المغرب من الناحية الدبلوماسية وتشجيع سلاطينه لاتخاذ إصلاحات تعين المخزن، في رأيها، على إعادة الروح إلى بنياته العتيقة وإصلاحها والدفع بها إلى مستوى مواجهة التطاولات الأجنبية على سيادته، وقد تكفل الوزير البريطاني دريموند هاي بتحقيق الأهداف الجيوستراتيجية التي كانت بلاده تنشدها من سيادتها هاته واستطاع أن يزاوج بين الحديث عن الإصلاحات والتفاوض من أجل توقيع معاهدة 1856 والتي ستفتح الباب على مصراعيه في وجه التدخل الأوربي في المغرب، والتغيير الجذري للإطار القانوني الذي ألقى بثقله على العلاقات المغربية الأوربية قد تم تدعيمه على أساس المبادئ العامة التي تم الإقرار بها بشكل علني من قبيل الحرية والمساواة والتبادل التجاري، وترسخ ذلك بواسطة بنود اتفاقية 1856 الثمانية والثلاثين، وقد عممت الإجراءات الجديدة التي

حصل عليها الأنجليز بشكل آلي على القوى الأجنبية الأخرى، ووضعت هذه الاتفاقية وبشكل نهائي حدا لسيادة السلطان وسحبت منه كل إمكانية لممارسة حقوقه على التجارة البحرية.

كان جون دريموند هاي يضغط على نفسه كثيرا ليلبس قناع ممثل الدولة "المحبة" والصديقة ويؤدي دور الرجل "الحريص" على مصلحة البلد والسلاطين، من خلال تقديمه النصائح المستنيرة لكي يصمد المغرب في وجه التدخلات والاعتداءات الخارجية لكنه، في الحقيقة وبالدرجة الأولى، كان يخدم المصالح الاستراتيجية لبلده في منطقة البوغاز وجبل طارق وغرب البحر الأبيض المتوسط.

ومن منطلق تحديث الدولة وهياكلها الذي دعا إليه دريموند ارتفعت وتيرة العمل على استغلال المغرب وتبينت أهمية وضرورة الإصلاحات، بما في ذلك المالية والعسكرية، ولم يكن بالإمكان إخراج هذه التطبيقات إلى حيز الوجود إلا بمساندة ودعم القوى العالمية التي لا تنوي نظريا الانقضاض على أراضي البلاد، ومبدئيا تعتبر بريطانيا العظمى أحسن مثال على ذلك، "ورغم ذلك فالسلطان مولاي الحسن كان يعرف تمام المعرفة حدود "الصداقة" التي كانت تجمع بريطانيا بالمغرب، إذ كان يستحضر الاختلالات والهفوات التي كان يرتكبها الإنجليز كلما واجه المخزن أزمة مع إحدى القوى الوازنة، وكان يعرف أيضا أن الإصلاحات التي كان ينصح بها لا تصب في مصلحة المغرب بقدر ما تزيد من تبعيته بشكل متزايد، ولم ينس أيضا كيف تركت الخارجية البريطانية، ودون سابق إنذار، المندوب المغربي خلال مؤتمر مدريد (1880) وحيدا في مواجهة ممثلي الدول العظمى التي كانت عازمة على إجهاض أية محاولة إصلاح جوهرية في المغرب.

وبسبب هذا "التخلي" قرر السلطان ـ بمحض إرادته ـ إطلاق إصلاح ضريبي سنة 1884 المتمثل في "الترتيب الحساني" والذي اصطدم بالكثير من الحملات المناهضة". لم تعجب الدروس، التي استخلصها السلطان مولاي الحسن من فشل الإصلاحات التي هدفت إليها بريطانيا العظمى، المستشار الإنجليزي الذي لم يرقه هذا الوضع ورغم أن هذا الأخير كان يعرف حقيقة الوضع في المغرب كما لم يكن يتردد في التجسس على السلطان وأعوانه إلا أنه اعتبر عدم الأخذ بكلامه سوى مظهر من مظاهر التحفظ المفرط والتعصب الرجعي.

إن ثقل خطر التوغل الأوربي بالمغرب انطلاقا من الفشل الذريع الذي مني به في معركتي إيسلي وتطوان جعله تحت رحمة المعاهدات والاتفاقيات التي عملت جاهدة على تفتيت جميع الإمكانيات التي يتوفر عليها، فقد المغرب على إثرها هيبته العسكرية واستقلاله المالي حيث ستعجز القيادة المخزنية على القضاء على تمردات القبائل التي ستدخل مرحلة الثورة المنفتحة في وجه السلطة المركزية مما يحيل إلى القول بأن ظاهرة السيبة التي طبعت تاريخ المغرب قد تغيرت هي الأخرى في مفهومها بفعل التدخل الأوربي حيث انتقلت من التمردات المؤقتة والعابرة تبعا للظروف المختلفة التي تفرزها إلى مرحلة العصيان الدائم الذي يجسد إلى حد كبير مصاعب ومشاكل وضعف وتقليدية الجهاز السلطوي المغربي.

يكتب سمير بوزويتة: "إذا كانت الفوضى دلالة فقط على ضعف السلطة المركزية المؤقتة فقد ترتبط بمجموعة من الأحداث التي شهدها المغرب: تجارة مفروضة، حمايات، شروط دولية، غرامات.." إلا أن الكتاب الفرنسيين تغاضوا عن هذه الأحداث واعتبروا الفوضى نتاج داء داخلي مزمن وفطري، فقدموا السيبة المغربية كمسلسل طبيعي تبرهن القبائل من خلاله على استقلالها الذاتي، ووصفوا المخزن كحكومة متنقلة في حملة دائمة ضد القبائل البربرية، تارة لمراقبتها وتارة لمعاقبتها، فتتحول السيبة بهذا المعنى من ظاهرة لا سياسية في الظاهر إلى أداة نقدية للدواليب المخزنية، "ويقدم المخزن ورئيسه السلطان على أنهما لم يكونا سوى خليتين طفيليتين

توصلتا إلى الحكم بالقوة، وتمارسان هذا الحكم بالقوة أيضا لمصلحتهما وحدهما عن طريق ابتزاز الأموال من الرعايا وقمعهم دون تقديم أية خدمات بالمقابل، ومع ذلك فإن هذه السلطة كانت ضعيفة رغم شراستها".

ومن تم لم تعد الكتابة الاستعمارية تصف المبعوث الفرنسي إلى المغرب على أنه غازيا بل يعمل على تهدئة الحروب الداخلية، لتكسب بذلك فرنسا مشروعية في إخراج المغرب من مشاكله ومحو التناقض بين الجبل والسهل، بين الشرع/المدينة والبادية، بين المخزن والسيبة، بفضل القوة الموحدة، في نظرها، ألا وهي الحماية الفرنسية.

مناقشة النتائج:

نستنتج من النظرة الكولونيالية، أنها ترى عدم وجود ارتباط بين دولة السلطان وبين المصالح الجماعية، حيث يكون منطق السياسة شيئا ومنطق المصلحة الاقتصادية والاجتماعية شيئا آخر. فما هو مفهوم الدولة عند بيير لوتي Pierre Loti مثلا؟

يقر عبد الله العروي في كتابه مفهوم الدولة بأن" الدولة سابقة على التساؤلات حول الدولة وأورد أن كل تفكير حولها يدور ضمن محاور ثلاثة تكمن في الهدف والتطور والوظيفة والتي تختلف فيما بينها بالمعدات والمفاهيم والمناهج، ويستخلص أن الدولة "تدرس حسب أربعة مناهج: القانون، الفلسفة، التاريخ، علم الاجتماع، وأن لكل منهج أسلوبه في التعامل مع المواد والمعطيات، هكذا سيختلف المختص بكل من الحقول أعلاه عن غيره، نظرا لاختلاف الأساليب في التفكير والأدوات والأسئلة، فلكل سؤال منهج ولكل منهج سؤال، ولكن الرؤية تحدد هذا أو ذلك ضمن صيغة البحث عن البدائل من أجل بناء المستقبل، وقد تحدث العروي أيضا عن "تكون الدولة بالعالم المقابل تاريخيا وجغرافيا للعالم الإسلامي ألا وهو العالم الأوربي من خلال مناقشة وظائفها ووسائلها أي انطلاق الدولة الحديثة بالأراضي الأوربية وتوصل إلى القول بأن الدولة الحديثة هي مجموع عقلنة المجتمع، كما عالج في كتابه هذا الدولة التقليدية في الوطن العربي وتوصل إلى أن الفكر الإسلامي القديم بما فيه ابن خلدون يتضمن أخلاقيات واجتماعيات لكنه لا يتضمن نظرية الدولة وينتهي إلى القول بأن المفكرين العرب لا يهتمون بالدولة القائمة، وبالتالي لا يرون فائدة في البحث عن السؤال: ما هي الدولة".

لم ينظر بيير لوتي Pierre Loti إلى الدولة المغربية بمفهومها الحديث، بل لم ير في السلطانية سوى جهاز يقوم بدور الحكم ومن تم يركز على دور الوسيط الذي تلعبه الدولة السلطانية والسلطان بهذا المعنى لا يمارس سوى لعبة المهادنة. نحن إذن أمام سلطة تجسد ظاهرتي العنف والدبلوماسية، فنستنتج إذاك أن هذه الممارسة تفسر إلى حد كبير مدى افتقار السلطة إلى الإمكانيات المالية، التي تقوم مقامها الحركة السلطانية، والتي يكون بإمكانها فرض سيطرتها الشاملة والدائمة على مغرب بيير لوتي الذي لا يسود فيه سوى الفوضى وانعدام الأمن.

لقد تشكل الغرب بعد سلسلة من التحولات المتتالية، فقد عرف المد والجزر في القديم مع النهضة الكارولانجية والحروب الصليبية، ثم المد مع الحملة الاستعمارية الكبيرة الأولى التي قادها الغزاة في القرن السادس عشر، ثم عرف مدا جديدا في القرن السابع عشر حيث تطور إلى شكل من الاستعمار الفكري مع الاكتشافات العلمية الكبرى، ثم إنجازات القرن الثامن عشر، ثم مرحلة التخلص من الاستعمار، وأخيرا السيطرة بالعلم والتقنية حيث ننتهي إلى هذه الظاهرة التي أفرزت لنا كوكبا تربطه شبكة قوية من الاتصالات المكثفة المتداخلة والتي تعمل بدون انقطاع.

بعد الحركة الاستعمارية التي قامت بها أوربا لتحقيق مصالحها وتأكيد تفوقها لن يرث المجتمع الإسلامي من الاستعمار الفقر والتبعية فقط، بل سيرث جهاز "الدولة – الأمة" الذي يقتضي تنظيمه وإرساء قواعده، وهذا الجهاز بهذا الشكل لم تعرفه هذه المجتمعات من قبل سوى في شكل إجراءات وقيود على حريتها في سعيها الحثيث لطرد المستعمر، ولكنه أصبح الآن جهازا يتكفل بإتمام ما بدأه الغرب من "عملية التغريب" مستثمرا كل ما تتيحه "الدولة–الأمة" من احتكار مشروعية استعمال العنف المنظم وغير المنظم أيضا. وإذا كان" استيراد الدولة من الغرب هو استيراد لجهاز بدون نظرية فإنه لم يكن خفيا أن الدولة الحديثة تحمل

مشروعا كاملا للمجتمع، إنه مشروع التحديث، لكن بلوغ ذلك لم يكن أمرا سهلا بالنسبة "للدولة ـ الأمة" رغم استنفارها كل ما يتيحه امتلاك هذا الجهاز من الإشراف على التعليم والتربية واستخدام الإعلام واللجوء إلى استعمال العنف بشكل همجي أحيانا.

يكتب سعيد محمد عالة: {وإذا كانت الدولة الإسلامية في الفكر الإسلامي المعاصر تعاني من ازدواجية المرجعيات الفكرية والتاريخية، فالدولة الوطنية ليس لها إلا مرجعية واحدة لكنها تستمدها من الخارج." فهي ليس لها تاريخ حقيقي متميز عن تاريخ الدولة الحديثة العالمية مما يجعلها مرتبطة بنخبة جديدة هي النخبة الحية الفاعلة المؤثرة وهذا ما يفسر لماذا بقيت الدولة الحديثة في الواقع العربي هشة الجذور والمرتكزات، وقليلة العمق في الشعور أو في الضمير الفردي أو الجمعي، مفتقرة في ذاتها إلى الروح المحركة، وفاقدة للغايات المحفزة وعاجزة عن الإنجاز[...] لقد كان على النخب السياسية وهي تستورد "الدولة ـ الأمة" كما عرفتها التجربة الحضارية الغربية أن تدرك بأنها كانت تجلب مع هذا الجهاز قدرة فائقة على قمع الفرد والمجتمع على السواء. ومحاولة فرض "الدولة ـ الأمة" كحاملة لمشروع التغريب على المجال الحضاري الإسلامي لن يمر دون عنف وقهر وظلم ، فالتغريب ليس مجرد مشروع للدولة الحديثة، بل هو إيديولوجيتها التي من دونها تفقد مبررات بقائها، والتغريب كعملية للعقلنة، هو اختراق للتراث ولكل القيم المتوارثة، فهو قلما كان مسلسلا عفويا، بل هو في أكثر الأحيان إفراز لاستبداد متنور، وفي بعض الأحيان لاستبداد قليل التنور".فالأمر يتعلق بتغيير الذهنيات وتعبئة كل الطاقات، إن تطوير العلوم الإدارية بشكل باهر لم يزد الدولة إلا قدرة على تعميق قمعها وإرسائه على أسس قانونية أشد فعالية، كما أن العلوم الحديثة والتقنيات الدقيقة زادت من قدرة الدولة على المراقبة والتحكم في كل شيء. لقد أصبح كل ما يقع خارج الدولة وبدون إذنها شيئا غير مشروع بل ويستوجب العقاب أيضا}.

التوصيات: تكثيف البحث العلمي والدراسات بشأن العلاقات الدولية وكل ما يخص الاندماج مع الآخر والتفاعل مع الثقافات الأخرى وتجاوز النظرة المتعالية بين الشعوب في إطار تصالح شامل يرمي إلى تطوير العلاقات الدبلوماسية، الاقتصادية، الثقافية والقومية في أفق تطوير المنتوج الاقتصادي وتحسين الفعل السياسي وسبر أغوار الثقافات المغايرة لأن "الآخر" لأن الطبيعة البشرية جبلت على التعايش مع الآخر. لأن هذا الأخير يعد عنصرا أساسيا في فهم وتشكيل الهوية، حيث يقوم الناس بتشكيل أدوارهم وقيمهم ومنهج حياتهم قياسا ومقارنة بالآخرين كجزء من منهجية التفاعل البيني التي لا تحمل بالضرورة معان سلبية. ينتمي مفهوم الآخر إلى مجال العلاقات البشرية بمختلف أبعادها الوجودية والفكرية والوجدانية مما يبرز طبيعته الإشكالية. حيث تنشأ هاته الإشكالية انطلاقا من كونه ذاتا (تشبهني وتختلف عني، ومن كونه ضروريا لوجودي بصفتي وعيا) يختلف عني ولكنه يلتقي معي في هذا الاختلاف بالذات ما دمت أن بدوري أختلف عنه فأنا أشبهه في اختلافي.

الدعوة إلى تجاوز رواسب المراحل الاستعمارية وعقدة الآخر المخالف عن "النحن" أو"الأنا" وتجاوز الاختلافات العرقية، الإثنية، القومية والاقتصادية، السياسية، والاجتماعية في أفق الدفع بالركب الحضاري إلى الأمام – بل بالعكس– والاستفادة من شتى الاختلافات بين الدول المتقدمة والدول النامية والدول التي هي في طريق النمو لأن مصطلح الحضارة يعني حضارة شعب معين أي خصوصياته ومراحله التاريخية ورواسبه الذهنية وتمثلاته للعالم والحياة وكل ما يساهم في تشكيل تصوره للأمور وتكوين ثقافته، وليست الحضارة مقتصرة أو مرادفة للتطور الذي حققه الغرب فقط.

الهوامش:

1 سعيد محمد عالة، "حول مسألة السلطة والسياسة في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر"، **مجلة المنعطف**، العدد 11، 1995، ص. 52 . 62.

2 عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوربا مابين القرنين الخامس عشر والثامن عشر. مسألة التجاوز**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، 2000، ص. 12.

3 Jean Brignon et autres, **Histoire du Maroc**, Edition Hatier, Paris, 1967, p.412.

4 العاقل محمد، "الرحلات الأوربية لشمال المغرب: ''التعرف على المغرب'' بعيون ناقدة"، **موقع شمالي**، 13 أبريل 2016، https://chamaly.ma/

5 نفسه.

6 مصطفى المرابط، "إصدارات"، **مجلة المنعطف**، العدد 11، 1995، ص.100 – 103. وراجع أيضا: سعيد بن سعيد العلوي أوربا في مرآة الرحلة. صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 12، 1995، ص.100 – 103.

7 ن.م، ن.ص.

8 ن.م، ن.ص.

9 مصطفى الغاشي، "النخبة المغربية وأوربا "رحلة أسبوع في باريز" لمحمد بن عبد السلام السايح 1922". **انتقال الأفكار والتقنيات في المغارب والعالم المتوسطي**. سلسلة ندوات ومناظرات رقم 160، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2008، ص. 179 – 204.

10 مصطفى الغاشي، "النخبة المغربية وأوربا "رحلة أسبوع في باريز" ... م.س، ص. 179 – 204.

11 ن.م، ن.ص.

12 أي عشر سنوات بعد تجربة الحماية وأربع سنوات بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى التي عرفت مشاركة مغاربة في أطوارها إلى جانب فرنسا. فخلال هذه الفترة وما بعدها نهجت فرنسا في سياستها الحمائية تجاه المغرب ما عرف بالسياسة الإسلامية أو الأهلية والتي كان بطلها الجنرال ليوطي، راجع: مصطفى الغاشي، "النخبة المغربية وأوربا "رحلة أسبوع في باريز" ... م.س، ص. 179 – 204.

13 ن.م، ن.ص.

14 معرفة غزيرة، العمل بالتدريس (معهد مولاي يوسف) الاشتغال بالقضاء، مكلف بمهمة تحديد سمت القبلة لمسجد باريس)). راجع: مصطفى الغاشي، "النخبة المغربية وأوربا "رحلة أسبوع في باريز" ... م.س، ص. 179 – 204.

15 ن.م، ن.ص.

16مصطفى الغاشي، "النخبة المغربية وأوربا "رحلة أسبوع في باريز" ... م.س، ص. 179 – 204.

17 عبد الرحيم المودن، "فكرة الدستور والمغرب بين الخيال والواقع". **انتقال الأفكار والتقنيات في المغارب والعالم المتوسطي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2008، ص. 232205.

18 ن.م، ن.ص.

19 ن.م، ن.ص.

20 مصطفى الشابي، **النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1995، ص. 27، 175 و176.

21 علي حسني، **التحول المعاق. الدولة والمجتمع بالمغرب الحديث، مساهمة في تاريخ المؤسسات والتحولات الاجتماعية 1830.1912**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000، ص.90.

22 عبد الرحيم المودن، "فكرة الدستور والمغرب بين الخيال والواقع". **انتقال الأفكار والتقنيات في المغارب والعالم المتوسطي** ... م.س، ص. 205.232.

23 ن.م، ن.ص.

24 ن.م، ن.ص.

25 Vicomte Charles de Faucauld, **Reconnaissance au Maroc 1883–1884**, Editions d'aujourd'hui, Paris, 1985, p.11,12.

26 الزطاطة، العينية، الذهبية، أي حقوق الأمن والمرور، بحيث لما يقترب الرحالة الأجنبي من أول قبيلة مستقلة متمردة، فإنه ينزل بمكان يسمى (النزالة) يتم فيها التفاوض في مسألة ثمن عبور القبائل التي سيمر منها فيتم كذلك اختيار الزطاط الذي سيكلف بعبور الأجنبي إلى حدود القبيلة المتفق عليها، أما عدد الزطاطة فيختلف حسب كل رحلة عبور وحسب القبيلة التي يتم عبورها. راجع. سمير بوزويتة، **مكر الصورة. المغرب في الكتابات الفرنسية 1832 . 1912**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007، ص. 38.

27 A.G.P. Martine **Quatre siècle d'histoire marocaine. Au Sahara de 1504 à 1902 au Maroc de 1894 à 1912**, Imprimerie El maarif aljadida, Rabat, 1994, P.579.

28 علي حسني، **التحول المعاق. الدولة والمجتمع بالمغرب الحديث، مساهمة في تاريخ المؤسسات والتحولات الاجتماعية 1830.1912** ... م.س، ص. 12.

29 ثريا برادة، "نسف المؤسسات التقليدية وتمهيد الاستعمار الفرنسي. " **المقاومة المغربية ضد الاستعمار 1904.1955. الجذور والتجليات**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، 1997، ص. 77.93.

30 ن.م، ن.ص.

31 ن.م، ن.ص.

32 جون دريموند هاي هو سفير الملكة فيكتوريا بطنجة حيث عاش أهم محطات مساره المهني، وقد شغل هذا المنصب في 1844 خلفا لأبيه، الذي كان القنصل العام لمدينة البوغاز، لعب دريموند دورا قياديا في المغرب، سواء بمعية والده أو عند تحمله لمنصبه إلى حدود تقاعده سنة 1886 ، ويعتبر سفيرا وازنا لتمثيله أقوى كيان عالمي آنذاك، وهي بريطانيا، وترجع قوته كذلك إلى تأثره بنموذج والده وشخصيته القوية ثم قربه من الوسط الإسلامي (بعد إقامته في قسطنطينة) ومعرفته باللغة العربية، كما عاصر السلاطين المغاربة من السلطان المولى عبد الرحمان (1820.1859) والسلطان المولى محمد بن عبد الرحمان (1859.1873) إلى السلطان المولى الحسن، (1873.1894) فكان شاهدا على تطور المغرب طيلة مدة تقارب نصف قرن، ولم يكتف دريموند بلعب دور المراقب فقط، بل كان أحد أهم الفاعلين في الساحة السياسية المغربية لتأثيره في قرارات السلاطين المصيرية. فكان لا يتوانى في الضغط على السلاطين المغاربة لكي يجبرهم على اتخاذ العديد من المبادرات التي لا تصب بالضرورة في صالح المغرب، "وكان هذا بالذات أحد أسباب الخلافات العميقة بين دريموند هاي والسلطان المولى الحسن". راجع. عبد العالي الشباني، "جون دريموند هاي... السفير البريطاني الذي أقنع سلطان المغرب بتبني الإصلاحات "، ترجمة نبيلة ضريف، **جريدة المساء**، العدد 1420، السبت . الأحد 16 . 17 /2011/4، ص.5.

33 نفسه، ص.6.

34 ن.م، ن.ص.

35 سمير بوزويتة، **مكر الصورة. المغرب في الكتابات الفرنسية 1832 . 1912** ... م.س، ص. 35 و36.

36 نفسه، ص. 37.

37 حرص المتطرفون الاستعماريون على القول بأن المغرب لم يكن موحدا في تاريخه، وأنه ينتمي إلى أجناس خاصة العرب والبربر، ولم يكونا على اتحاد أو وحدة، بل إنهم ينفون عن طائفة من الأمة المغربية أو الشعب المغربي هذا العنصر الموحد، وهو الإسلام، ويعتبرون أن هذه الطائفية لم تكن خاضعة للإسلام إلا بالاسم، وأن العقيدة الإسلامية لم تتمكن منها، لذلك فمن السهل فصلها عن الفئة المسلمة، ثم ينتهون إلى القول بأن الإسلام إذا لم يستطع أن يوحد العناصر المتساكنة في المغرب التي ظلت متطاحنة وثائرة بعضها على بعض، وإذا لم يستطع أن يجعل هذه الشعوب والقبائل موحدة تحت حكم مركزي. فإن الحماية هي القوة الموحدة، وهي التي يجب أن يدين لها الجميع بالطاعة والامتثال والخضوع. راجع. عبد الكريم غلاب، **تاريخ الحركة الوطنية من نهاية الحرب الريفية حتى استرجاع الصحراء**، ج.2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000، ص. 551.

38 سمير بوزويتة، **مكر الصورة. المغرب في الكتابات الفرنسية 1832 . 1912** ... م.س، ص. 210.

39 يعتبر نيكولا مكيافيلي أول من استعمل سنة 1513- 1514 في كتابة الأمير مصطلح الدولة (status) بالمعنى الحديث الذي راجت به الكلمة مفهوما واشتقاقا في لغات أوربا الغربية، وترتبط الدولة حسب مكيافيلي على نحو عضوي بشخص الأمير أو الملك، "فقد كان على الأمير أن يكون قويا ومهابا، وأن يمركز كل السلط السياسية والعسكرية والقضائية في يده، والملك النموذجي هو الموحد للبلاد والضامن لأمنها وسلامتها، هو الذي تتوفر فيه صفات العظمة والواقعية والقوة والدهاء وتحكيم المصلحة، أي الحاكم الذي لا يفصح عن نواياه، والذي يظهر بمظهر الفضيلة لكنه يعمل في الواقع بأساليب المكر والخداع والقمع، ويرى مكيافيلي أن هدف الدولة لا يكمن في إسعاد الجماهير بل في منع الفوضى". وقد شكل كتاب الأمير منطلق لنظريات الفلاسفة ورجال السياسة الذين أتوا من بعده، وساعدهم هذا الكتيب على وضع الشروط اللازمة للوصول إلى الحكم وسبل المحافظة عليه، فلم تبق طبيعة الحكم تطرح بعد صدور كتاب الأمير، من منظور البحث في المشروعية كما كان في السابق، لأن ماكيافيلي تبنى نهجا وأسلوبا جديدا اتسم بالواقعية وبحث عن السبل التي تتلاءم وغريزة الإنسان الطموحة إلى الانفراد والسلطة، وبذلك أحدث ماكيافيلي قطيعة بين زمان النهضة في الغرب وفلسفته التقليدية في السياسة، وأشار إلى هذه القطيعة بقوله : "تصور الفلاسفة في السابق جمهوريات وإمارات فاضلة، لكن لم يستطع أحد أن يرى هذه الكيانات السياسية أو يتعرفها على أرض الواقع"، ومن تم أزاح مكيافيلي الأبعاد القدسية عن الحكم ليجعل منه مجرد ظاهرة اجتماعية ترتبط في أساسها بالقوة والتجربة. راجع:

- محمد حبيدة، **تاريخ أوربا. من الفيودالية إلى الأنوار**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2010، ص.152.

- عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوربا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر. مسألة التجاوز** ... م.س، ص. 11و12.

40 سيار الجميل، "نقد تاريخانية التفكير العربي المعاصر: تفكيك مفاهيم"، **مجلة المستقبل العربي**، العدد 160، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992، ص.4222.

41 سمير بوزويتة، **مكر الصورة** ... م. س، ص. 211.

42 ن.م، ن.ص.

43 ن.م، ن.ص.

44 سرج لاتوش، "تنميط العالم: محاولة في فهم آليات التغريب ومحدودياته"، **مجلة المنعطف**...م.س، ص. 41 - 51.

45 سعيد محمد عالة، "حول مسألة السلطة والسياسة، م. س، ص. 52 . 62.

46 ن.م، ن.ص.

47 ن.م، ن.ص.

48 حيدر الجراح، "فوبيا الآخر"، **شبكة النبأ المعلوماتية**، https://annabaa.org/arabic/annabaaarticles/335